



دروب الليل المغلقة

البيت رمق شباك زوجته فوجده مظلما .. وانتقلت عيناه الى شباك الاولاد .. كان مظلما هو الآخر .. نامت سناء منذ الان والامتحانات بعد عشرين يوما .. مجرد ان تمام امهم حتى يتساقط الاولاد في قبضة النوم واحدا واحدا .. تخيلهم نائمين على سريرهم ، على كلا الناحيتين ، وسيقانهم متشابكة .. اخذ يصعد الدرجات .. لا بد ان يصحح الكراسيات الليلة لياخذها معه في الفد .. فكر في ان ينام ويشغل حصة الفد باي شيء .. فليراجع معهم الدروس السابقة .. وليصحح الكراسيات في اي يوم اخر .. ضفط اصبعه على زر الجرس فاسترسل رنينه طويلا فزعا شرخ هدوء البيت .. وسمع صوت اقدام تلتقط قباقبا بعجلة ... اذن لم تنامي بعد يا سناء .. هل كنت تنتظرين عودتي ؟ .. لماذا لم تذاكري كلمتين والامتحانات على الابواب ؟ .. سحبت الترياس واضاءت مصباح الصالة وانفتح الباب .. وراها تقاوم النوم وتطرده من عينيهما قبل ان يكتشفه ابوها

- : انت نمت يا سناء ؟

اجابت بصوت كسول : لا يا بابا

- : ذاكرت ؟

اغلقت الباب .. واقفلت النور .. ووقفت لحظة في الظلام وقد عاد النوم يقالبها .. وسمعت صوت ابوها وهو يقول لامها : انت نمت يا ام سناء؟

اخذ يخلع حذاءه .. وارتجفت شفتاه باهة الم .. وشد اللحاف فوق زوجته وابنه ولكنها رفسته بقدمها فتعري فخذا .. ووقفت سناء بالباب .. وقالت بصوت حاولت ان تملأه باليقظة : ها تتعشى يا بابا؟

قال وهو يرمقها في قميص نومها الواسع وكأنه يراها لأول مرة : لا وقبل ان تعود الى غرفتها قال لها : بس اعلمي لي كباية شاي ... غلشان ها اصحح كراريس البنات .

سمع تكة زرار النور .. وسيقان الوابور وهي تحسك برخامة المطبخ كأنه يحتج على العمل في مثل هذه الساعة من الليل .. رمق زوجته وهي نائمة مثل علامة الاستفهام تحضن ابنه وفخذا الابيض العاري سمين كأنه طفل اخر نائم عند قدميها .. فكر في ان يغطيها ثانية .. وارتدى جلبابه .. ووقف لحظة وقد وضع يده فوق زرار النور وقدمها خارج الغرفة وعينا فوق زوجته وابنها النائم في حضنها والطفل الابيض السمين النائم عند قدميها .. وفكر في ان يفلق الباب وينام .. ولكن وش الوابور نبهه الى ان سناء صاحبة وانها سوف تدهش لنومه المفاجيء بعد ان قال لها ان تصنع له كوبا من الشاي

مرر كفه فوق جبهته . واغمض عينيه لحظة . اخذ يرقب زميليه معوض افندي مدرس الدين و ابراهيم افندي مدرس العربية ، وهما يحركان احجار الطاولة ببطء ، ويدق احدهما احد الاحجار بشدة كأنه يوقظ زميله ويوقظ نصر افندي الذي يتابعهما في صمت منذ اكثر من ساعة .

ساله معوض افندي فجأة : انت بتنام يا نصر افندي ؟

كان ذبابة حطت على انفه ، فتح نصر افندي عينيه بقوة وحاول ان

يتنسم ، ثم قال بصوت ممطوط كسول : لا

قال معوض افندي بتصميم لا مبرر له : دا النوم مالي عينيك .

لم يجد نصر افندي بدا من ان يقتصب ضحكة عالية تمطت لها شفتاه ثم تعانقتا ثانية ورفدتا مكانهما في استسلام . همهم نصر افندي وهو يمد يده في جيبيه ويخرج ساعتة القديمة : هي الساعة تيجي لها كام دلوقتي ؟

مد ابراهيم افندي يده في جيبيه هو الآخر ، كان نصر افندي ذكره

بشيء نسيه .

ارتفع صوت نصر افندي قائلا وهو يمرر كفه فوق جيبيه : ياه ..

احداشر ونص .

اكمل ابراهيم افندي : ونص وخمسة

وقف نصر افندي وقال : السلام عليكم

قال معوض افندي : مالمسه بدري

- : عندي كراستين عاوز اصححهم

- : لسه فيه تصحيح .. ما السنة خلصت من شهر

مد يده اليهما . وانحدر في صمت على السلام المظلمة . كانت

اصابعه تتحسس الدرابزين بخوف وقدمه تهبط ببطء وحذر حتى تلامس

درجة السلم فتقبض اصابعه بقوة على الدرابزين كأنه يحول بينه وبين

نفسه من السقوط ثم يترك ثقل جسده كله فوق قدمه ويجر الثانية

خلفها . ورائحة الليل والصيف تملأ انفه . ولاحقه صوت معوض

افندي يرن في اذنه (لسه فيه تصحيح ؟ .. ما السنة خلصت من

شهر) زم شفتيه واحس بالضيق . لماذا لم يرد عليه ويخرجه امام

ابراهيم افندي ويقول له (انت السنة عندك بتخلص من اول يوم في

الدراسة يا معوض افندي .. اما انا فطول ما فيه دراسة فيه شغل

... ما الواحد لازم برضي ضميره يا معوض افندي) .

تلفت حوله .. كل شيء يلفه الظلام ... والبلد تفرق في النوم

بعد ان يعط الليل بقليل .. ينام كل شيء .. وحينما اقترب من

- : عاوز حاجة تانية ؟

- : مش هاتذاكري لك كلمتين ؟

قالت وهي تخفي تآؤبها وراء كفها الصغيرة : انا ها اصحى الفجر
علشان اذاكر .

- : طيب روحي نامي

في عمر سناء .. لن تكبرها باكثر من شهور قليلة .. رغم ان سناء
تسبقها بعام دراسي .. ولكن شيئاً ما سوف يتفجر من تحت ثوبها
.. من خلف شففيها .. من اعماق عينيها .. شيء ما .. عارم ..
وملتهب .. اما ابنته فليست اكثر من سطح بحيرة مفلقة لم تهبط عليها
رياح عارمة بعد فتهز سطحها وتقلب قاعها .. وامسك كوب الشاي
بيده واخذ يشرب . ارتفع صوت بكاء ابنه .. واخذت امه تهدده حتى
كف .. تذكر الطفل الابيض السمين الراقد عند الاقدام .. تمدد امامه
على المكتب .. فوق الكراسيات .. واخذ ظله يهتز فوق لوح الزجاج
. فكر ان ينام تانية .. وامتدت يده الى كراسية وفتحها ببطء ..
ووضع كوب الشاي جانبا . وتثاب . وبدأت عيناه تزفجان فوق
الكلمات . كلمات صغيرة منمنمة ترهق عينيه ، وقلمه الاحمر
يزحف فوقها ثقيلًا حازمًا كخطوات الناظرة السمينة ، وتقلق اصابعه
الكراسية وتتناول اخرى . يرمق جلدتها الملونة برهة ثم يفتحها ، وبدأ
عيناه وقلمه الاحمر تزحف فوق الكلمات ورغبته في النوم تعاوده وتلح
عليه . وكلمات معوض افندي تطفو فوق رأسه ودقات احجار الطاولة .
لماذا لم يرد عليه ؟ مد يده اليهما في صمت وانحدر على السلالم
المظلمة نظر امامه كأنه ينظر الى تلميذات الفصل . مرة يراهن
بشباب المدرسة ، وتارة يراهن بالفساتين الملونة . يا حضرة الناظرة
نهيي على البنات كي لا يحضرن بهذه الفساتين ، عاقبيهن حتى لو ادى
الامر لان تنذري واحدة او اثنتين بالرفق او الحرمان من الامتحان .
كل سنة وانت طيب يا نصر افندي فالسنة الدراسية قد اوشكت على
الانتهاء . يا حضرة الناظرة ما دامت السنة الدراسية لم تنته رسمياً
فكل شيء يجب ان يسير كما كان . تناول كراسية . ففتحها . وفوجيء
بأول صفحة مليئة بالكتابة . اين الفهرس ؟ ادرك ان الكراسية مقلوبة .
ماذا كتبت هذه الحمقاء في كراسية الانشاء ؟

قفزت عيناه فوق الكلمات . التفتظ انفاسه ومرر كفه على جبهته
وعينيه . وضع القلم الاحمر جانبا وضغط بقدميه على الارض كأنه
يستعد للوقوف . أخذ الفصل يضج بالضحك . ضحكة قصيرة
متبورة مليئة كالواء ثم عاصفة من الضحك الطفولي . ماذا ؟ ما
هذا ؟ ... خطاب ؟ من هذه ؟ ... هي ؟ .. هل هي ؟ .. أخذت
تتفجر في ذاكرته بالضحك .. كانت تقف امامه تضحك بقوة ودون
خوف وجسدها يهتز تحت فستانها الملون . كفي عن الضحك . توقفت
عيناه فوق الاسم .. زينب .. زينب .. زينب .. اخذت التلميذة القطة
كلمح الطيف لتقف مكانها زينب بجسدها النحيف . زينب . زينب .
تذكرها . كأنه لم يرها منذ سنين . مختبئة في آخر الصف الثالث
اسفل الشباك . افتحي الشباك يا زينب . افتحي الشيش يا زينب .
الا تستطيعين يا قصيرة ؟ اطلعي فوق التختة ، وامسكيه بالشنكل .
لا يهملك ففدا سوف تكبرين وتطولين وتفتحين شيش أي شباك دون
الحاجة الى الطلوع فوق المقعد . ثم تتفجر ضحكة قصيرة متبورة
مليئة كالواء . هي . هي التي تضحك .. ثم عاصفة من الضحك
الطفولي .. ويحمر وجه زينب من الخجل .. ماذا تكلمين يا ست
زينب في كراسية الانشاء ؟ .. حبيبي محمد .. انت عارف انسي
احبك .. انفجرت الضحكة القصيرة المتبورة كالواء .. واخذت
ترتفع وترتفع .. رمق الفلاف وقرأ الاسم مرة اخرى .. كأنه يستوثق
انها زينب .. زينب وليست هي .. خيل اليه انها هي التي كتبت
هذا الخطاب في كراسية زينب . تتخفى له في كراسيات التلميذات
الاخريات لتطارده حتى في منتصف الليل . اخذ الفصل يمسوج
بالضحك والمواء والعيون تلتتمع .. تعالي يا زينب .. هل انت التي

كي يصحح الكراسيات .. سوف تعرف .. واحس بالخجل .. واطفا
النور .. وذهب الى غرفة الصالون .. ووش الوابور وكلمات معوض
افندي ودقات احجار الطاولة وقميص نوم سناء الواسع والطفل الابيض
السمين النائم عند الاقدام .. كل هذه الاشياء تلاحقه وتنهكه .. ما
كادت عيناه تقصان على صف الكراسيات حتى كف كل شيء من حوله
وبداخله .. كأنها ازدادت في الظلام .. وخيل اليه انه يرى صاحباتها
كلهن .. يرمقن بعيون ملنمة وخوف .. حتى التلميذات اللواتي
بدأن يتفجرين للمذاكرة تذكرهن تماما كأنه رآهن بالامس .. ولا
يصادف مرة والد احدهن حتى يهتف به محذرا :

ليه البنات ما عادتس بتيجي المدرسة ؟ .. لازم تخليها تيجي احنا
لسه بشتغل .. ما خالصناش

ومنذ اصطربت الدراسة تمهيدا لامتحانات اخر السنة
اخذت البنات القلائل اللواتي يحضرن يرتدين ملابس الخروج الملونة
.. كان يفيظه جدا هذا الخروج على جو الدراسة الذي يستوجب
الوقار والحشمة .. ما يكاد الشهر الاخير يقبل حتى تتحرر الفتيات
من الخوف .. تجيء واحدة منهن في البداية بفستان وكأنها قادمة
لتوها من حقل او سهرة .. فتمتلئ عيون زميلاتها بالدهشة والبهجة
كأنهن تذكرن شيئاً هاماً كمن ان ينسينه .. وفي اليوم التالي تأتي
اثنتان او ثلاث بفساتين .. ثم يتلاشى الحذر والخوف .. فلا يمر
ثلاثة ايام او اربعة حتى يهوج الفصل كله بالفساتين الملونة .. واحدة
دائماً تبدأ .. وتذكرها .. هي .. وقفزت الى رأسه بقوة وصخب
ودون خوف .. كان يفيظه دائماً لا مبالاة وجرأتها .. وعيناها
الملتئمات .. وحينما كان يدير ظهره لهن ليكتب شيئاً على السبورة
فتنظر اذنه ضحكة فائرة مكتومة .. ترن في اذنه كرتين القطع القضية
الجديدة .. فتتفجر خلفها سلسلة من الضحكات الطرية النيئة
المسترسلة .. فكان يعرفها .. هي .. ليس غيرها .. ضحكة خبيثة
.. مقطوعة .. تتحكم فيها شفتان قادرتان .. ممثلتان .. مثل المواء
.. وحينما كان يلتفت اليهن في غضب كانت عيناه تسرعان رغماً عنه
نحوها .. تتحسان شففيها المليئين لتمسكا بضحكة التمرد .. بهواء
الانثى الصغيرة المتحدية .. وتجتذبه التماعة عينيها .. ويحس بشيء
هائل يختبئ تحت ثياب الصبا .. شيء اكبر منها واكبر من الفصل
كله .. يدركه بحاسة رجل عجوز ولا يستطيع الامساك به بحاسة مدرس
عربي يدرس للبنات منذ سنوات قليلة .. وتهرب عيناه الى العيون التي
تملا الفصل فتخمد التماعاتها بسرعة وتعود ساكنة كسطح بحيرات
مفلقة .. وتموت بقايا الضحكات .. ولكن شيئاً غامضاً يجذب عينيه
ثانية ورغماً عنه الى عينيها .. الى وهجها .. ولا يملك الا ان يعطيها
ظهره ويغمس عينيه في الكلمات التي يكتبها .. حتى اذا احتكت
قدمان على الارض لتحضنا الاقدام الاخرى على ان تحلو حذوهم
فتشير زوبعة من الاحتجاج الصبياني .. حتى حكة القدمين هذه يحسها
ويعرف صاحبها .. حكة قدمين دافنتين ثقيلتين .. كان يعرفها فوراً
.. وكان يتجاهلها احياناً كثيرة ويعاقب الاخريات حتى لا يسلكن
سبيلها ..

ووضعت ابنته كوب الشاي امامه .. ووقفت لحظة لرمقه ..
وحينما فتح عينيه على ارتطام الكوب بالمكتب رأى قميص النوم الواسع
فكاد ان يرتد الى الخلف فرعاً .. كأنها هي قد قفزت من ذاكرته
وتجسدت ووقفت امامه لرمقه وتنحسه بابتسامتها .. ورمق عينيها
فراهما تلتهمان التماعة سطح بحيرة مفلقة .

قالت له : انت بتنام يا بابا ؟

احس بالخجل كأنها اكتشفت الموضوع الذي يفكر فيه وكأنها رأت
هذه البنات مرسومة في التماعة عينيته .. بشففيها المليئين ..
بعينها اللتئميتين .. بساقيها الثقيلتين المختبئتين اسفل ثوب
المدرسة .

مهمم : لا .. بس مستني الشاي

كُتبت هذا الخطاب ؟ لا .. اذن من الذي كتبه ؟ .. لا تعرفين ..
اني اعرفها .. التلميذة التي كتبت هذا الخطاب في كراسه زينب
ونسيته تخرج هنا .. فلنخرج من تلقاء نفسها فاتني اعرفها .. اذا لم
تخرج حالا فسوف احوّلها هي والخطاب الى حضرة الناظرة .. تنفجر
الضحكة القصيرة المبورة المليئة كالوآء فتنفجر التلميذات في
عاصفة من الضحك .. اني اعرفها .. اعرفها .. فلنخرج من تلقاء
نفسها وسوف يكون موضوع الخطاب سرا لا يعرفه احد .. الضحكة
نفسها ايضا .. ثم الشفتان الملبتان المطبقتان والعينان التوهجتان
والفستان الذي سينفجر في لحظة ما .. قلب الكراسه مرة اخرى
واخذ يقارن بين الخطين .. هو هو .. زينب ... قفزت الى ذاكرته
وهي واقفة فوق المقعد .. حبيبي محمد .. وهل تعرف الحب ايضا ..
زينب .. زينب نفسها ؟ وتسى الخطاب في الكراسه .. ويقراه
هو .. ومتى عرفت الحب ؟ .. متى عرفت محمد هذا ؟ .. واحس
كانه هو المسؤول عن وقوعها في الحب .. كانت دائما في آخر
الصف .. تحت الشباك .. لا يذكرها الا اذا انقلق الشباك ..
ولا يذكرها ايضا الا واقفة فوق المقعد وساقاها الرفيعتان تمتدان
اسفل ثوبها .. واحس بها كأنها تموء من بين السطور ويرتفع مواؤها
داخل البيت ويملاه .. واغلق الكراسه كأنه يفلق فمها .. حتى لا
تستقظ زوجته واولاده وبنته سناء .. انها اصغر من سناء ..
وسناء املا منها .. وعرفت الحب .. وتكتب خطابا اليه في كراسه
الانشاء .. لماذا لم تكتب في اي كراسه اخرى ؟ .. او في ورقة
خارجية ؟ .. اخذ يبحث عن كراستها هي .. وضع كراسه زينب
جانبا .. بعيدا عن الكراسات الاخرى كأنها ستصيبها بالعدوى ..
وحين وجد كراستها .. مغلقة بغلاف احمر في لون قميص ابنته
سناء .. وقلب الغلاف فانفجر يموء في ضحكة قصيرة .. واخذ
يبعث في الصفحات الفارغة عن خطاب ما .. ولم يجد شيئا .. ولم
يصدق .. فاعاد البحث باصرار .. كل واحدة تخرج كراساتها
امامها .. نعم يا حضرة الناظرة .. فضيحة اخلاقية .. لا يمكن ان
يحدث هذا تحت سمعنا وبصرنا .. انهن مثل بناتنا .. في عمر
بناتنا .. واذا لم نحل بينهن وبين الفساد فالدور سوف يأتي على
بناتنا .. وسوف يعم البلدة الفساد .. ضبعت الخطاب بطريق
المصادفة .. كانت الكراسه مقلوبة وفتحتها وذهني شارد ف وقعت
عيناي على هذه الفضيحة .. سوف نفتش جميع الكراسات .. انا
اعرف التلميذة التي علمتهن هذا الشيء .. هذا الشيء الخيف ..
انهن صغيرات لم يدهن ولم يحنن .. ما عداها .. زينب هذه
اصغر من بنتي سناء .. انها تصعد فوق مقعد لسكى تثبت شيش
الشباك بالشنكل .. بناتنا مهددات بفضيحة الحب .. اخذت
اصابعه تخطف الكراسات في ثورة محمومة وتقلبها مرة ومرة ...
والضحكات القصيرة المبورة المليئة كالوآء تنفجر من كل ناحية ..
احس بانها ملات البيت .. وحضرة الناظرة والمدرسون والمدرسات
يملاون الفصل وينتظرون نتيجة البحث .. سوف نعثر على خطابات
كثيرة مثل هذا الخطاب يا حضرة الناظرة .. لم يعثر على شيء ..
ووقف في مكانه .. اخذ تيلفت حوله خشية ان يكون احد من افراد
أسرته قد استيقظ ..

بها الى المدرسة ما دامت الدراسة لم تنته رسميا .. ها هي ذي
كراسه .. وهذه كراسه اخرى .. لا شيء .. لا شيء .. وهذا
الكتاب الكبير .. جفف عرقه .. والقي بالمنديل جانبا .. دق قلبه
بعنف .. ثم لاذ بالصمت .. أمسكت اصابعه بوردة حمراء ذابلة في
قلب الكتاب .. تساقطت منها ورقة فوق المكتب .. خيل اليه ان الجميع
حتى حضرة الناظرة قد انفجروا في الضحك .. ما هذا يا نصر
افندي ؟ .. وردة حمراء .. وماذا تعني وردة حمراء ذابلة في كتاب
تلميذة صغيرة لا ترتدي الفساتين الملونة ما دامت الدراسة لم تنته
رسميا .. انها لا تعني شيئا يا حضرة الناظرة .. انها مجرد وردة
حمراء ذابلة .. ذابلة .. ربما اخذتها من زميلة لها .. او وجدتها
هنا او هناك ثم وضعتها في الكتاب ونسيته .. كيف تنسى وردة
بهذا الحجم في قلب كتاب تذاكر فيه كل يوم ؟ .. ليست وردة فقط ..
بل حمراء .. حمراء يا نصر افندي .. انها تعني الكثير والكثير ..
اسألنا نحن عن معنى وردة حمراء ذابلة مخبوءة في كتاب تلميذة ..
لا معنى لها يا حضرة الناظرة .. لا معنى لها .. انها ليست خطابا
واضحا وصریحا يحدد الاسماء والاماكن والاشياء .. اخذت الضحكات
تنفجر في كل مكان حوله .. حضرة الناظرة والمدرسون والمدرسات
والتلميذات وزينب .. و .. هي .. هي .. اخذت تموء صراحة
وفي وجهه ودون خوف .. اسألها يا نصر افندي عن معنى وجود
هذه الوردة في كتابها اسألها امامنا فقد عثر مدرس العربية
في كراستها على وردة حمراء مائلة .. مستحيل .. انا اعرف
ابنتي جيدا .. اعرفها .. يا سناء .. يا سناء .. يا سناء ..

هرولت سناء على صياح ابیها ... والنوم يملأ عينها .. ورائته
وقد افرغ محتويات حقيبتها واخذ يلوح في وجهها بوردة حمراء ذابلة
ويتمتم بكلمات مبتورة والعرق يبلل وجهه بغزارة .

ضياء الشراقي

القاهرة

روايات وقصص

من منشورات دار الآداب

٧٥٠	نجيب محفوظ	اولاد حارتنا
٤٠٠	د . سهيل ادريس	الحي اللاتيني
٤٠٠	د . سهيل ادريس	الخنديق الفيق
٤٠٠	د . سهيل ادريس	اصابعنا التي تحترق
٢٠٠	فأدة السمان	ليل الغريب
٢٥٠	محمد ابو المعاطي ابو النجا	الناس والحب
٢٥٠	يوسف شرور	زورق من دم
٢٥٠	ديزي الامير	ثم تعود الموجه
٢٠٠	غسان كنفاني	عن الرجال والبنادق
٢٠٠	د . عبدالسلام العجيلي	الخيال والنساء
٢٥٠	د . عبدالسلام العجيلي	فارس مدينة القنطرة
٢٥٠	يوسف الشاروني	الزحام
٢٥٠	سليمان فياص	احزان حبران
٢٥٠	عبدالكريم غلاب	الارض حبيبتي
٢٥٠	عبدالله نيازي	اعباد
٢٥٠	محمد رؤوف بشير	رحلة الخفاش